أسعد أبو خليك*

«كارلوس» الفيلم القضية

احتفى لبنان بفيلم «كارلوس»، فقد زار بيروت المخرج أوليفير أسياس، وشارك في الفيلم عدد من اللبنانيّين، بمَن فيهم اليساري السابق، أحمد قعبور. و«كارلوس» صُوِّر، في الكثير منه، في لبنان وساعدت أجهزة الدولة اللبنانيّة المخرج في عمله (كما جاء في التنويه المطبوع على الشاشة في نهاية الفيلم). مسخ الوطن مضياف، وهو يتلقّى منذ التأسيس الإهانات والتحقير بصدر رحب

كان فيلم «كارلوس» مُعدّاً للشاشة التلفزيونيّة، لكنه عُرض سينمائيّاً أيضاً. كانت الصالة مكتظّة في آخر أيّام العرض بمدينة سان فرنسيسكو. لم يظهر ملل على الجمهور خلال ست ساعات متواصلة من العرض (بما فيها الاستراحتان). لكن نيّة المخرج كانت واضحة: الإساءة ليس فقط إلى وديع حدّاد، بل إلى النضال الفلسطيني برمّته، حتى ذلك الذي لا علاقة له بـ«العمليّات الخارجيّة». اللقطة الأولى معبّرة: اغتيال محمّد بوديّة («أبو ضياء») بواسطة «الموساد» في باريس (لم يذكر الفيلم أنّ بوديّة الذي عمل في تحرير الجزائر هو الذي عرّف «كارلوس» على القضيّة الفلسطينيّة في جامعة باتريس لومومبا في موسكو). سبق اللقطة مشهد جنسي بين بوديّة وامرأة فرنسيّة. أراد المُخرج على نسق التصوير الاستعماري الكلاسيكي تظهير صورة الرجل المُستعمَر كخطر جنسي أكيد على نساء الرجل الأبيض. الرجل العربي يظهر كإرهابي وكخطر على نساء أوروبا. وهذا كان المشهد الأوّل فقط.

قدم أسياس إلى لبنان ولوقي بالترحاب. ماذا تتوقع (وتتوقعين) في بلد عبادة الرجل الأبيض؟ أكثر من ذلك، عندما أرادت مجموعة صغيرة من الناشطين والناشطات (بمَن فيهم أنيس نقاش، المعنيّ بالأمر، والذي تعرّضت صورته في الفيلم لتشويه) التعبير عن معارضتهم للفيلم، انزعج المجتمع المخملي الذي يرى في نفسه رقيّاً فقط لأنّه مُستميت في تقليد الرجل الأبيض وكسب رضاه. جيزيل خوري، في برنامجها «استديو آل سعود»، انزعجت من الاعتراض على الفيلم، وتململت. الرجل الأبيض لا يخطئ. وقد شارك عدد من اللبنانيّين واللبنانيّات في الفيلم، ولا عجب في ذلك. متى كان هناك اعتراض في لبنان على التصوير المسيء للعرب في الثقافة الغربيّة؟ على العكس، فقد ساهمت قطاعات كنسيّة وغير كنسيّة في حقل العداء للعرب والإسلام في الغرب. (إنّ إسرائيل، لا أمين الجميّل، هي التي انتقت السيئ الذكر، أنطوان فتّال (صاحب كتاب استشراقي بدائي بالفرنسيّة عن عنصريّة الإسلام) كي يقود فريق مفاوضات 17 أيّار).

من الضروري التذكير بأنّ الفيلم وإعداد البحث له تمّا على يد صحافي أميركي ذي تاريخ غير واضح. هذا الأميركي الذي يعمل تحت اسم «ستيفان سميث» غطى القارّة الأفريقيّة في جريدتي «لو موند» و«ليبراسيون»، وألّف عدداً من الكتب عن أفريقيا. للدلالة على عنصريّة الرجل ضد شعب القارّة تكفي الإشارة إلى مؤلّف كامل («عُصاب أفريقيا») للكاتب السنغالي «بوباكر بوريس ديوب»، يدحض فيه عنصريّة «سميث» وخصوصاً في كتابه «نيغرولوجي». أيّ أنّ أسياس انتقى كاتباً: 1) ذا تاريخ عنصري ضد السود و2) لا علاقة له البتّة بالشرق الأوسط والقضايا العربيّة. «سميث» هو اليوم أستاذ زائر في الدراسات الأفريقيّة في جامعة «ديوك» وقد كتبتُ له على بريده الإلكتروني سائلاً إيّاه إمكان عرض بعض الأسئلة عليه، إلا أنّه لم يجبني. أما مُنتج الفيلم فهو دانييل لوكونت، وهو معروف بمناصرته المتعصّبة لقضايا المحافظين الجدد وبترويجه لمصالح إسرائيل وللإساءة للعرب في برامج وثائقيّة وأفلام. كان يجب أن أتوقع رداءة الفيلم بمجرّد أنّ مجلّة «نيويورك تايمز» المعادية للعرب وقضاياهم باستثناء قضيّة محمد دحلان وسلام فياض ومحمود عبّاس (إذا كانوا يُحسبون على العرب) أسبغت مديحاً على المخرج وأشادت بالبحث الذي بنى فيلمَه عليه. وهذا مهم لأنّني وجدت أنّ الحس السياسي أو اللاحسّ السياسي للفيلم هو أميركي بحت، بالمعنى العنصري والصهيوني (وبمقياس الثقافة السائدة في أميركا، حتى لا نصم كلّ الشعب الأميركي بالوصمة ذاتها).

يستوقفك أولاً أنّ الفيلم يبالغ في أهميّة «كارلوس» في التاريخ المُعاصر للثورة الفلسطينيّة وحتى في تاريخ تنظيم وديع حدّاد نفسه. لم يكن الرجل إلا حاشية في نضال شعب فلسطين، كما كان «لورنس العرب» حاشية في «الثورة العربيّة» الصغرى. احتاج أسياس إلى المبالغة في دوره كي يسوّغ الفيلم: هناك المئات من الثوّار بأسماء عربيّة، ولم يسمع بها أحد. بمعنى آخر، كون «كارلوس» كان مشهوراً وكون أنيس نقاش مجهولاً عبر السنوات (إلى أن ألقي القبض عليه في باريس) دليل على مهارة الأخير، لا على مهارة الأوّل. لم يكن حدّاد يريد أن يصنع مشاهير: كان يريد أن يصنع ثوّاراً، وتقلّ فائدة الثائر عندما يصبح مشهوراً، أو ساعياً نحو الشهرة، أو الاثنين. يذكر المناضلون العتاق الذين عاشوا مرحلة الأردن (قبل مجازر أيلول وبعدها) «كارلوس» هذا. في دورته العسكريّة الأولى، ميّز نفسه بشجاعته وقدرته الجسديّة وبحماسته الشديدة. ويذكر من تدرّب معه في الأردن، أنّه كان يضيق ذرعاً بتدريب رصّ الصفوف والوقوف والتأهّب (يبدو أنّ تدريبات المنظمات الفلسطينيّة كانت مُتأثّرة بتنظيم الجيوش، وهذا عامل من عوامل تجييش الثورة لانعدام الخبرة العسكريّة في حرب العصابات، يُراجع في هذا الصدد كتاب يزيد صايغ، «الكفاح المُسلّح والبحث عن الدولة»، بالرغم من توجهاته اليمينيّة). كان «كارلوس» يعترض ويطالب بتدريبات قاسية. وقد امتاز أيضاً في الرماية. كلّ هذا جذب إليه الأنظار، كمقاتل وليس كقائد ثوري كما يصوّر الفيلم.

وهنا يبدأ الخيال في الفيلم. يصبح «كارلوس» هذا قائداً فلسطينيّاً وندّاً لوديع حدّاد نفسه. تراه يجلس في اجتماع لقادة الفصائل الفلسطينيّة دعا إليه يوري أندروبوف. لكن قصّة «كارلوس» تلقي ظلالها على الجوانب السيّئة في تجربة الثورة الفلسطينيّة. كأنّ الثورة تجذب من دون أن تشذّب أناساً من خلفيّات مختلفة. لجأ إلى الثورة مرتزقة وزعران وأوغاد وعملاء استخبارات. لم تدقّق الثورة في خلفيّة هؤلاء. يذكر واحدٌ أنّ فلسطينيّاً دخل إلى معسكر تدريبي في «البرج» ورأى «رجلاً» في الدورة. انتحى بالمسؤول السياسي واعترض حانقاً: ماذا يفعل هذا هنا؟ قيل له إنّه رفيق من الجامعة الأميركيّة في بيروت. صرخ: رفيق؟ أنا عرفته منذ سن الحداثة في المدرسة وهو كتائبي عتيق. رفض أن يشارك في الدورة (لاحظ رفاق «الرفيق» أنّه اختفى كليّاً عن السمع بعد 1982 ولم يبق له أثر). كان على الثورة أن تدقّق في خلفيّة هؤلاء الذين واللواتي كانوا يظهرون فجأة في معسكرات التدريب ومكاتب التنظيمات ويطلبون الانضمام. طبعاً، كان بينهم مناضلون أمميّون، ولكن كان بينهم مرتزقة ومجرمون.

من يقرّر صفة «كارلوس» ووقعه؟ الأمر نسبي. أنا أعتبر أنّه كان أقرب إلى ثائر أهوج تحوّل إلى الارتزاق بعد عمليّة فيينا، إن لم يكن قبلها. يكفي أنّ اسمه ارتبط بتقبيح اسم الثورة الفلسطينيّة على نطاق عالمي. أراد الفيلم أن يجعل من مسيرة النضال الفلسطيني عملاً ارتزاقيّاً وإجراميّاً وإرهابيّاً. لا لبس البتّة في رسالة الفيلم هذه. وأبلغ تعبير عن صهيونيّة الفيلم هو غياب إسرائيل التام عن سياقه. إسرائيل ليست موجودة في سيناريو الفيلم وأحداثه. وإسرائيل غائبة عن أفعال الإجرام والإرهاب، في أوروبا نفسها، وهي التي بدأت موسم الإرهاب في أوروبا بالعبوات المفخّخة إلى سفارات في الأربعينيات (كم أخطأت مجلّة «الإيكونومست» الرصينة في مقالة

> وديع حداد لم يرد أن يصنع مشاهير بل أراد أن يصنع ثواراً إذ تقل فائدة الثائر عندما يصبح مشهوراً

نُشرت أخيراً عن تاريخ الطرود المُتفجّرة إذا إنّها سهت عن ذكر ريادة إسرائيل في هذا المجال من الإرهاب أيضاً). و لم يكترث الفيلم لضحايا شعب فلسطين والعرب الآخرين من المدنيّين والمدنيّات في أوروبا، حتى لا نذكر آلاف الضحايا في العالم العربي. لكنه أراد أن يُقرِّب المشاهد والمشاهدة من كلّ ضحيّة أجنبيّة للعنف العربي (مثل مشهد إطلاق الرصاص على المرأة الفرنسيّة الحامل في بيروت، ولا أدري إذا كانت هذه واقعة أم كذبة من أكاذيب الفيلم العديدة). وعندما ظهر تسجيل كلام لبسّام أبو شريف من السبعينيات وهو يتحدّث في تفسير الاعتداء على صاحب محال «ماركس أند سبنسر» الصهيونيّة في لندن، كان أحرى بالمُخرج ـ لو أراد أن يكون مُنصفاً، وهو لم يكن مُنصفاً البتّة ـ أن يذكر للمشاهد، وإنْ بصورة عابرة، أنّ وجه أبو شريف المليء بالشظايا والحروق والتشوّه هو نتيجة طرد إرهابي من دولة إسرائيل العزيزة على قلب أسياس وكاميراه.

وحدّاد استهدف مالك «ماركس أند سبنسر» لكونه مموّلاً لـ«حيروت» والقضايا الصهيونيّة. الفيلم أراد أن يصوّر الثائر العربي كمُعاد لليهود، كيهود (وحده ذلك الألماني اعترض على معاداة اليهود، فيما كانت المسألة تخضع لنقاشات طويلة في صفوف القادة والأعضاء، لكن تصوير المُخرج للمنظمات الفلسطينيّة تقصّد وصمها بالفاشيّة والديكتاتوريّة. لم يكن قادة المنظمات الفلسطينيّة كلّهم على شاكلة ياسر عرفات. وحتى الأخير كان يخضع للمساءلة، وخصوصاً في السنوات الأولى، من أترابه).

لم يصل الفيلم إطلاقاً إلى حقيقة لغز وديع حدّاد. أحمد قعبور أجاد التمثيل لكنه لم يصوّر شخصيّة وديع حدّاد. لم يكن حدّاد مثل إبراهيم قليلات أو «أبو العبّاس»، ولم يكن يلهو بمسدّس في أوقات الفراغ أو التهديد. أراد المُخرج أن يصوّر كلّ المناضلين العرب كأوغاد وزعران. صحيح أنّ عدداً من الأوغاد والزعران تسرّب إلى صفوف الثورة الفلسطينيّة، لكن هؤلاء كانوا إما في تنظيمات استخبارات النظام السوري (وهل كانت منظمة «الصاعقة» إلا جمعيّة من الأوغاد والسارقين والقتلة؟) والنظام العراقي ودكاكين ياسر عرفات الكثيرة. لكن التنظيمات العقائديّة مثل الحزب الشيوعي ومنظمة العمل الشيوعي وحزب العمل الاشتراكي العربي ــ لبنان والجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين والجبهة الديموقراطيّة لتحرير فلسطين والحزب

الأخبار
تأسست عام 1953
تصدر عن شركة «أخبار بيروت»
رئيس التحرير المؤسس
جوزف سماحة
(2007-2006)
مستشار مجلس التحرير
انسي الحاج
■ مدير التحرير خالد صاغية ■ سكرتير التحرير حسان الزين ■ مجلس التحرير عربيات دوليات إيلي شلهوب، ثقافة بيار أبي صعب، مجتمع ضحى شمس، رياضة علي صفا، عدد عمر نشابة، اقتصاد محمد زبيب
■ المدير الفني اميل منعم
■ رئيس مجلس الادارة والمدير المسؤول ابراهيم الأمين
■ المكاتب بيروت ـ فردان ـ شارع دونان ـ سنتر كونكورد ـ الطابق السادس ■ تلفاكس: 01759500 01759597 ■ ص.ب 113/5963 ■ www.al-akhbar.com
■ الاعلانات Tree Ad 611115 / 01 ـ 252224 / 03
■ التوزيع شركة الاوائل 15 ـ 666314 / 01 ـ 828381 / 03